مقياس : الإصلاح الديني في عصر النهضة العربية السنة الجامعية : 2020/2019

أستاذ المقياس : الدكتور حابل ندير مستوى : السنة الأولى ماستر عربية

المحاضرة رقم : 8 / 9 : الحركة الوهابية (تابع) : مقولات الوهابية وحواراتها

الحجم الساعي : حصتان (ثلاث ساعات)

من الضروري أن يكون لكل حركة ميثاقا فكريا يتأسس على جملة من المقولات التي تمثل ثوابت وتعبر عن الخطية الفكرية لهده الحركة، فقد مثلت مقولتا الإيمان والتوحيد الأصل الفكري لاستمرار الحركة واعتبرت بمثابة الموجه العقيدي الدي يحدد مسارات الفكر الوهابي وفق هدا المنظور من الطبيعي أن تكون هناك جملة من الحوارات المتعلقة بالأصول وهدا ما يمكن قراءته من خلال السجال الدي كان حول جملة من القضايا منها التأويل وعلم الكلام وخلق القرآن والفعل الإنساني ... الخ

الإيمان والوجدان بين الاعتقاد والفعل : يعتبر الإيمان مقولة مركزية في الفكر الديني الوهابي حيث ورد المفهوم في النص القرآني في مقامات عديدة ومختلفة ، ولهذا كان إيمان الأوائل يتأسس على الوجدان أو ما يعرف بإيمان القلب الدي يسبق العمل ولكنه يحتاج إليه للتأكيد على صحته / ما وقر في القلب وصدقه العمل ، قد يعود هدا إلى التركيبة العاطفية للإنسان العربي إلا أن إيمان الوجدان كان آلية دفاعية في وجه راديكالية المجتمع الجاهلي يرى ابن خلدون أن الإيمان دو مراتب أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها الاعتقاد القلبي ثم تتبع الجوارح التي تكون أفعالها وتصرفاتها تصديقا وإيمانا وهدا هو الإيمان الكامل [1].

كانت مقولة الإيمان محكا لظهور الفرق الكلامية التي ناقشت مضمون هذا الإيمان وعلاقته بالفعل ومرتكب المعصية ... الخ ، وقد اتخذت الوهابية موقفا من الجدل الكلامي حيث نجد ابن حنبل يعتبر الإيمان قول وعمل ويعتبر فاعل الكبيرة مسلما عديم الإيمان وهنا يقترب من موقف المعتزلة ، كما يضيف ابن تيمية مسألة أصل الإيمان الدي يعد فصلا بين الإيمان والكفر .

لم يخرج الوهابيون عن المفهوم السلفي القديم للإيمان الذي يجمع الفعل بالاعتقاد أو العمل الظاهري مع الباطني المبني على الأصول الستة : الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره ، نجد هنا أن البعد الفلسفي يتمثل في اعتبار الإيمان أهم

---

[1] ابن خلدون عبد الرحمن ، المقدمة ، تحقيق وتخريج : عبد الله محمد الدرويش ، الطبعة 1 ، 2003 ، دار البلخي ، دمشق ، الجزء الثاني ، 1 . 2 . 161، الفصل العاشر (علم الكلام) ، ص 209 .

صور اليقين ، وهي فكرة نجدها عند هيجل أيضا عندما ربط بين الإيمان كاعتقاد ومعرفة ما أومن به فالإيمان معرفة في حد ذاته باعتباره يتضمن الحياة والحركة والتطور والارتقاء ، حيث يعتبر العقل خادما للإيمان والإيمان أساس العقل كما يتضمن الإيمان بعدا روحيا ولهدا طالب هيجل المسيحيين واليهود بالعودة أكثر للإيمان بالروح ، فمضمون الدين هو الله والحديث عن الإيمان هو حديث عن الله .... وبالتالي تصبح مهمة الفلسفة عند هيجل هي تبرير اللاهوت وتثبيت عقائد الكنيسة .

مقولة التوحيد وإشكالاتها : يعتبر التوحيد من المفاهيم المركزية التي تأسس عليها الفكر الوهابي ، وقد جاء التوحيد مقابل التصورات الوثنية المختلفة ، ويتصل التوحيد بقضايا أخرى اتخذت طابعا إشكاليا وكانت مدار سجالات فكرية كلامية مثل مسألة كلام الله وصفاته ، والعالم قدمه وحدوثه و التجسيم وخلق القرآن ... الخ من المسائل الكلامية التي صنعت مشهدا فكريا سجاليا .

لهدا تعتبر العودة للتوحيد عودة للمنابع الأصيلة للدين ومواجهة للعقائد الوثنية التي خلقت حالة الضياع الروحي والانقسامات السياسية الاجتماعية أو ما اعتبره محمد ابن عبد الوهاب قمة الظلال والانحراف عن الصراط الحق ، هده الأوضاع التي حتمت الثورة ضد الطقس الوثني ، ويعتبر الوعي بمفهوم التوحيد كمسألة مهمة في العقيدة الشق الأول للثورة ولهذا تحرص الوهابية في خطيتها الفكرية على الاهتمام بتنزيه التوحيد كمفهوم في حد ذاته ومحاربة كل أشكال الطقوس التي تشوه المفهوم واتخذ مسار التوحيد الاهتمام بمحطات ثلاث : توحيد العبادة ووحدانيتها لله وحده دون سواه ونفي الشرك في السؤال والاستغاثة والاعتقاد والتوكل والتوسط (وساطة الأولياء)

توحيد الخالق والاعتقاد بوحدانية التكوين والخلق : نفي إرادة المخلوق وسلطته عن الخلق وتسيير الأمور ، وهدا يحيل إلى قضايا العدل الإلهي وأفعال الإنسان والجبر والاختيار ومقولات الخير والشر .. الخ ، هناك حرية إنسانية وإرادة في الفعل الإنساني وتترتب عنها مسؤولية عن الفعل النابع من حرية الإرادة وحرية الاختيار ، لأن الله لا يجبر عباده على فعل الشر مثل حرية الإيمان والكفر وحرية فعل الخير أو الشر وهناك القضاء والقدر المفروضان لحكمة ما ، وهكذا تفصل الوهابية بين القدرية القائلة بالاختيار والجبرية القائلة بالجبر وتعطيل الإرادة ، وتنتقد الآراء الكلامية الأخرى كالاختيار المطلق عند المعتزلة والكسب واقتران قدرة العبد بفعل الله عند الأشاعرة ، حيث انتقد ابن تيمية التفريق بين الفعل والكسب [2] وهو الموقف الدي التزم به ابن عبد الوهاب .

---

[2] تقي الدين ابن تيمية ، مجموع الرسائل والمسائل ، تحقيق : محمد رشيد رضا ، لجنة التراث العربي، مصر ، ج 5 (قاعدة في المعجزات والكرامات وأنواع خوارق العادات)، ص 128 وما بعدها . رابط النسخة الإلكترونية https://ia802605.us.archive.org/4/items/mrkt2mrkt2/mrmt5.pdf

وحدانية الذات وصفات الله : توحيد صفات الله جزء من العقيدة لهدا تحاشى الوهابيون تأويل الآيات التي تتضمن صفات قد تشوش على الاعتقاد المجرد بالله ولهدا رأوا أن الآيات لا ينبغي أن تفهم على حرفيتها بل لها باطن وظاهر والباطن لا ينبغي تأويله ولا ينبغي الخوض في نفسيرها أو تأويلها تقديسا لله وتنزيها له عن كل تشبيه بمخلوقاته ، مثل الآيات التي تتضمن يد الله أو وجه الله أو استواء الله ، فالله ليس جسما تنسب إليه أعضاء بشرية كما أن استواءه على العرش ليس استواءً عادياً ، حيث تقوم وحدانية الذات على استحالة في المماثلة بين الله والخلق ونفي التشبيه والتجسيم ، دات الله سامية ليست مركبة من أجزاء ولا يستطيع العقل إدراك ماهيتها فهي تنفلت من حدود البدء والنهاية والقدم والحدوث ، فالله سميع بصير متكلم قادر مريد ليس كمثله شيء ، والمؤمن هو الدي يقوم بإرجاء ما غاب عنه (ما لم يفهم) من الأمور إلى الله لأن الإيمان بالله هو الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه لهدا سكت الوهابيون عن صفات الجوهر والعرض والجسم والجهة التي كان يتناولها المتكلمون .

الوهابية والقضايا الكلامية والتأويلية :

لقد خالف الوهابيون المتصوفة وعلماء الكلام وأهل التأويل في قضايا عدة ويعود هدا الرفض إلى اعتقادهم بخطر هده المباحث الفكرية على العقيدة ، حيث يعتبر التأويل حسبهم منافيا للتوحيد وتأويل المتشابه من القرآن يوقع في التعطيل أو التجسيم وهدا ما تنكره الوهابية ، رغم أن مواقف الوهابيين من التأويل غير واضحة إلا أنهم يجمعون على تفويض المتشابه منه إلى الله درءاً للفتنة ويستندون على الآية التي اقترن فيها التأويل بالفتنة (هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) _ آل عمران ، الآية 7 ، ولهدا كان البحث عن تأويل المتشابه بحثا عن الفتنة ، ولهدا آثر بعضهم _ مثل ابن تيمية _إرجاع التأويل إلى التفسير باعتبار التفسير يبحث عن المعنى الخفي / الباطن ، إلا أن أكثر السلف والوهابيين يتجنبون تفسير آيات الصفات وقد لخص الغزالي موقفهم الذي اعتبره حقا في قوله " حقيقة مذهب أهل السلف أن كل من بلغه حديث العوام من أحاديث الخلق يجب عليه سبعة أمور : التقديس ، ثم التصديق ، ثم الاعتراف بالعجز ثم السكوت ثم الإمساك ، ثم الكف ..." [3]

[3] أبو حامد الغزالي ، إلجام العوام عن علم الكلام : رسالة في مذهب أهل السلف ، تحقيق : مشهد العلاف ، دار الكتب العلمية ، مصر ، 2015، ص 4

والموقف ذاته يتخذه الوهابيون من علم الكلام والمشتغلين به فقد اتبعوا مسار الرفض الذي تبناه الشافعي وابن حنبل قبلهم باعتبار أن الصحابة سكتوا عن التكلم في مسائل القدر وغيرها ولم يشتغلوا بها ، فقد كان القرآن كلام الله أهم المسائل الكلامية التي ثار جدل حول طبيعته : فإذا كان لله صفة الكلام فهل القرآن مخلوق ؟ هذه المسألة التي قتل بسببها آخر خلفاء بني أمية وجهم ابن صفوان انتقلت أيضا للمعتزلة الذين اشتغلوا بها ونظروا للقرآن نظرتهم للكلام الإنساني وأكدوا أنه مخلوق هدا الرأي الدي دافع عنه المأمون وكان من ضحاياه أحمد ابن حنبل ، لتستمر الفتن بين المسلمين إلى غاية عهد المتوكل الدي رجع بالخلافة الى العقيدة ومذهب أهل السنة ، فالقرآن عند الوهابية كلام الله المنزل وحيا وهو ليس مخلوقا .

كما اتخذ الوهابيون موقفا رافضا من الفكر الصوفي حول مسائل الألوهية وفكرة الإنسان صورة الله التي أخرجها من نفسه وأخرج مكنوناتها الجمالية وتجلت في الأرض في الطبيعة الإلهية (اللاهوت) التي لا تنفصل عن الطبيعة البشرية (الناسوت) ، كما رفضوا فكرة الاتحاد بين الله والإنسان بالمحبة والشوق وفكرة الذات العليا التي يصل إليها الإنسان وفناء الذات الإنسانية الفانية في الذات الإلهية الأزلية أو ما يسمى بوحدة الشهود عند ابن الفارض ، إضافة لوحدة الوجود وتعدد الصور عند ابن عربي ، والإشراق و رؤية الله .. الخ من التصورات والفلسفات الصوفية العرفانية والإشراقية ، فقد لقيت تصورات الوجدان وكل ما يتعلق بالمنهج الصوفي العرفاني نقدا شديدا من طرف الوهابية باعتبارها فلسفات غريبة دخيلة وتصورات مضللة .

خاتمة :

هل كانت الوهابية حركة في الإصلاح الديني ؟؟

ما أثرها على الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر ، وما حقيقة صلتها بالحركات الراديكالية المعاصرة ؟

إدا رجعنا لمفهوم الإصلاح الديني في جوهره نجده تصحيحا وإزالة لما طرأ على فهم النص الديني من أخطاء وتحرير الفكر الديني من قيود التقليد ، ولكن المشكلة هنا ما هو الإسلام الصحيح ؟ هل هو دلك الإسلام المتشعب الواسع كما فهمه الفقهاء ؟ أم هو واحد وحيد كما فهمته الإيديولوجيات الدينية ؟

الغرض العام الواضح من الإصلاح هنا هو إصلاح فهم الدين ، أي إصلاح فهم الإسلام ولكن : ما هو الإسلام الصحيح ؟ ، لقد تشعب الإسلام كما فهمه الفقهاء واتسع بحيث يصعب على المسلم الدي ليس له حظ من الثقافة والفكر فهم ما المقصود من إسلامه ؟ هدا الوضع

الذي خلق مشهد الانقسام في الأفكار حيث أصبحت كل فكرة تحملها شيعة معينة وظهرت الطوائف الدينية والشيع .

بالعودة إلى مفهوم الإصلاح ينتعش مفهوم الأصول الأولى باعتبار الإصلاح عودة إلى فهم الدين وفق الأصول ومنابعها الأولى وتحرير الدين من قيود التقليد ورفض التقليد هنا هو رفض تقديس البراديغم الديني / الفكري أيا كان منبعه ، لكن القراءة الأولى لهدا المفهوم تظهر تناقضا في متن مفهوم الإصلاح : كيف يمكن يكون الإصلاح تحريرا للعقل من قيود التقليد (بمختلف أنواعه) وفي الوقت نفسه عودةً للمنابع الأولى للسلف ومنعا للعقل من الاشتغال بالتأويل ، ألا يمكن اعتبار هدا الرجوع تقليدا ؟

قد يجيب الوهابيون أن الاحتكام للنص كسلطة هو الذي يمكننا من تمييز النافع من الضار في التقليد باعتبار تقليد السلف قدرة واقتداء وما دونهم هو الضلال ، ولكن هناك فهم متعدد للنص حتى داخل منظومة السلف ، إذن ما هو الفهم الدي يمتلك المشروعية الدينية ؟ أو بأي معيار يمكن اعتماد فهم معين كحقيقة ؟ وهنا ندخل في متاهة تعدد الحقائق الدينية الناتج عن تعددية الفهم وكل فهم يدعي امتلاك المطلقية والصلاح ، وهدا المسار يعني احتكار الحقيقة الدينية .

لا يمكن إنكار مجهودات الوهابية كحركة إصلاحية سعت إلى البحث عن المعنى الحقيقي لتعاليم الإسلام الحقيقية رغم الصعوبات التاريخية والسياسية نتيجة التواجد العثماني ، باعتبارها أول حركة إسلامية ساهمت في توحيد المسلمين سياسيا ودينيا بعدما كانوا طوائف مذهبية مشتتة ، ويمكن الإشارة أيضا إلى الانفتاح على المذاهب الإسلامية المغلقة منذ القرن الخامس الهجري وفتح باب الاجتهاد نظريا والاهتمام بالجانب الروحي كأساس للحضارة .

ولكن مجرد التفكير في المسألة يفرز مشهدا صادما من التناحر على المستوى الإجرائي / العملي ، راهن المشهد الإسلامي المحكوم بالصراع الذي انتقل إلى المستوى العملي والحروب والاقتتال يجعلنا نتساءل عن دور الوهابية كخلفية نظرية لهدا المشهد ، ويجعلنا كدلك نتساءل أكثر ليس عن فهم الوهابية للإصلاح والحقيقة ولكن عن فهم المعاصرين لفهم الوهابية ، لمادا فشل الفكر الإسلامي المعاصر في التأسيس لقيمة الاختلاف ؟ والتواصل وقيم الحوار التي نجدها في النص من خلال الحوار الأزلي بين الله والإنسان وبين الإنسان والآخر (الذات والآخر) وبين الإنسان والكون

ربما من الضروري أن نتساءل أيضا عن مستقبل الإسلام و تعددية الفهم وقيمتها في الإصلاح الديني ؟

<u>مراجع مقترحة للاستئناس:</u>

حسين ابن غنام، روضة الأفكار لمرتادي حال الإمام وتعدد غزوات دوي الإسلام، تحقيق: ناصر الدين الأسد، المطبعة المصطفوية، ومطبعة الدين القاهرة، 1961

عثمان ابن عبد الله بن بـشر، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمان ابن عبد اللطيف، الجزء 1 و2، بيروت، ط 2، 1974

عبد الرحمن ابن خلدون ، المقدمة ، تحقيق وتخريج : عبد الله محمد الدرويش ، الطبعة 1 ، 2003 ، دار البلخي ، دمشق ، الجزء الثاني

الشوكاني ، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد ، تحقيق الشيخ إبراهيم حسن ، مطبعة البابي الحلبي القاهرة ، 1374 هجرية

مجموعة الرسائل والمسائل النجديـة، مكتبة المنار مصر، ط 1، 1345

محمد ابن عبد الوهاب، عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، المكتب الإسلامي بيروت، ط 2، 1391

محمد ابن عبد الوهاب، كشف الشبهات في التوحيد، المطبعة المنيرية القاهرة، د ت

Henri Laoust , la profession de foi d'IBN Batta , Damas , 1958 , PP 67 /68

Reymond J, Mémoire sur l'origine des wahabbys, Le Caire, 1925

Malek Bennabi, Vocation de L'islam, Ed du Seul, Paris, 1957